محمد رضا الشبيبي

رحلة إلى المغرب الأقصى

من بغداد الى الدار البيضاء ، بين المشرق والمغرب ، للعبرة والتاريخ ، المغرب الأقصى، المغاربة والمهرجان ، بين فاس والدار البيضاء ، يوم الاحتفال ، مجالس المغرب ، برامج التعليم ، بحث في التربية ، القديم والجديد ، الحي الجامعي ، خزانة الكتب ، فكرة التوحيد ، المحافظون والمجددون ، العربية في المغرب ، لهجة المغاربة ، لهجة اهل فاس ، مع اساتذة القرويين ، المصطلحات في العامية المغربية ، اختزال الألفاظ ، قدم العامية ، البربر واللغة البربرية ، التعليم في المغرب ، اساتذة القرويين ، التعليم في عهد الاستقلال ، شؤون الطلبة ، شؤون التعريب ، التعليم العالي ، جامعة مدينة الرباط ، الخط المغربي ، بحث مقارن في الخطوط ، القاعدة المشرقية ، القاعدة المغربية

مقتبسة من المجلد الثاني عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٨٤ هـ — ١٩٦٥ م

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ محمد طه الحاجري

الاسكندرية

محمد رضا الشبيبي

رحلة إلى المغرب الأقصى

مقتبسة من المجلد الثاني عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٨٤ هـ — ١٩٦٥ م

رحلة الى المغرب الاقصى [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه بلاد العربية مضافةً الى لغتها ، او البلاد العربية موصوفةً بسكانها ، هذه البلاد بحدودها المعروفـة كانت ولم تزل وحدة جغرافية يقطعهـا ابناؤها من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق رجالة وركباناً آحاداً وجماعات يسيرون على بساط واحد لا يخامرهم ادنى شعور بوحشة في لغة او لون او عاطفة او عقيدة ، ومن هذه الناحيـة ضربت هذه البلاد للناس مثلاً يحتذى في التجاوب بين احساساتها واتجاهاتها فيما حزبها من احداث ، او الم بها من كوائن مختلفة .

هكذا كانت هذه البلاد وحدة جغرافية في عصور مجدها ثم تمكن منها الضعف والخمول وتباعدت الشقة فلا رحـــلة ولا لقاء حتى ذمر عليها الغريب ونفذ اليها الاجنبي وغزاها من غزاها من الاقوياء الطامعين فزادوا الطين بلة في اقامة الحواجز وايجاد العوائق

(١) تضمن الجزء الحادي عشر من اجزاء هذه المجلة وقائع رحلة عنوانها رحلة في بادية السماوة قام بها كاتب هذا المقال استغرقت خمساً وعشرين مرحلة في البادية بين مدينة دمشق وشواطي نهر « الفرات » وكان ذلك قبل اكثر من أربعين سنة ، وهذه ايضاً وقائع رحلة اخرى تختلف عن سابقتها في زمانها ومكانها وفي ظروفها الخاصة قمنا بها من العراق الى ديار المغرب الاقصى ، او من بغداد الى « الدار البيضاء » بالطائرة ثم بالسيارات الى مختلف حواضر المغرب : الرباط ، طنجه ، تطوان ، مكناس ، فاس . وكان ذلك في خريف سنة ١٩٦٠ وتتضمن هذه الرحلة الثانية بالاضافة الى تعريف البلدان وصفاً لجملة من اوضاع المجتمع المغربي واحواله ، ومن ذلك الاحتفال بمهرجان جامعه القرويين في مدينة فاس .

وسلطوا عليها الجهالة وحرموها من العلم والثقافة ، وسامها اولئك الغزاة الغالبون سوء العذاب ، واخيراً وبعد سُبات طويل دارت دورة الفلك ، وتحركت هذه الامة ، وشاع فيها ضرب من الوعي في هذه العصور الأخيرة .

تعددت مظاهر هذا الشعور في بلاد العربية او البلاد العربية ، ولا ابالغ اذا قلت ان رغبــة ملحة في تعزيز الاواصر وتوثيق الصلات ، وخلق فرص التعارف كانت من أبرز مظاهر الوعي المذكور ، وما ان خفت وطأة تلك القيود ، وتداعت بعض السدود التي اقامها المستعمرون حتى ظهر الميل الى تجشم المصاعب ، واستئناف الرحلات من شرق البلاد العربية الى غربها ومن شمالها الى جنوبها وبالعكس ، وفي هذه الحركة التي بدأت في مطلع هذا القرن ما فيها من الدلالة على نمو ذلك الشعور .

في هذه الفترة الواقعــة بين الحربين الكونيتين الاولى والثانية ، افلتَ بعض الرواد المغامرين والاحرار المجاهدين من الحصـــار او السجن المطبق عليهم فنفذوا الى بعض الاجواء الحرة شرقا وغربا ، واخيراً اقيمت مواسم ثقافة وادب في بعض بلاد المشرق فأمها من امها من افاضل المغرب لم تتكأدهم مشقة ولا قعدت بهم وعثاء ، وجاءت بعض اعياد « المغرب الاقصى » نخف الى المشاركة فيها من خف من ابناء المشرق فرحين مغتبطين كأنها اعيادهم بالذات وهي كذلك في الحقيقه .

ومن المعقول وقد نالت بلاد المغرب قسطا من حرياتهــا أن يُعنى المشارقة واخوانهم المغاربة بخلق فرص التعارف والتآخي ، وتعزيز الصلات الروحية والثقافية بين اجزاء العالم العربي ، وخير وسـيلة لخلق تلك الفرص تبـادل الزيارات والجولات العلميــة التي تُنسّق وجهات النظر في قضايا العصر الحاضر ، وتتجلى في تنظيم العلاقات الثقافية من قبيل تبادل الاســاتذة والطلاب والبعثات العلمية والمؤلفات والصحف السيارة ، وفي الاقبال على الرحلات .

انتهزت حكومة المغرب من مرور احد عشر قرنا على تأسيس « جامع القرويين » ومدرسته في فاس فرصةً للاحتفال بهذه الذكرى ، واعدت العدة للقيام بمهرجان يليق بشأنها ،

ووجهت الدعوة الى عدد من هيئات المدارس الجامعة والمعاهد العلمية، والى اشخاص آخرين، وكان كاتب هذه الكلمة بين من دعي الى شهود هذا المهرجان ، ولم يكن له بد من تلبية هذه الدعوة الشائقة التي صادفت هوى في النفس وامنية من اعز الاماني ، فانها اول رحلة نقوم بها الى تلك البلاد .

كانت الاسفار من المشرق الى المغرب أو من المغرب الى المشرق محفوفة بالاخطار بحراً وبراً اما لاختلال الامن واما للنفقات الباهظة ، على ان المغاربة كانوا يخاطرون بنفوسهم ونفائسهم في سبيل اداء فريضة الحج ، وكم من مركب ابتلعه اليمّ وهو في الطريق ، ومن قرأ رحلة ابن جبير او رحلة ابن بطوطة والأول رحالة أندلسي من أهل بلنسية ، والثاني مغربي من أهل طنجة . أطلع على جانب من خطر الاسفار وركوب البحار في تلك العصور .

هذا وهناك كثير ممن كتبت له السلامة من اهل الاندلس والمغرب فادى فريضة الحج عرج على حواضر المشرق ، ودور العلم في مصر والعراق أو على مثلها في خراسان ، وفي ما وراء النهر منهم من طابت له الاقامة في المشرق ، ومنهم من عاد بعد التحصيل ولقاء الشيوخ وتحمل الحديث وحفظه ، وقد حفظ التاريخ لنا اسماء جماعة من اعيان علماء الاندلس والمغرب شدوا الرحال الى مصر والاسكندرية ، ومنها الى الحواضر المشرقية .

وعلى ذكر الاسكندرية نقول كان هذا الثغر قبلة المسافرين بحراً من موانئ الاندلس والمغرب ، وما اكثر الذين اقاموا ودرسوا في مدارسها فقد انشئت خلال المائتين الخامسة والسادسة اكثر من مدرسة في مدينة الاسكندرية ، وحسبنا مدرسة الحافظ السلفي التي تخرج منها عدد غير قليل من المغاربة ذكرهم الحافظ السلفي في معجمه الذي سماه (معجم السفر) . وهذا ايضاً الفقيه الطرطوشي مصنف كتاب (سراج الملوك) اختار المكث في الاسكندرية على الرجوع الى بلاده في الاندلس الى ان مات ، ومن المغاربة من قضى شطراً كبيراً من عمره في هذه الرحلات العلمية كأبي بكر محمد بن العربي المعافري الأندلسي

الاشبلي الحافظ رحل إلى العراق والمشرق مرتين وصحب الغزالي والشاشي ورجع إلى المغرب بعلم لم يدخل به أحد غيره ، وهو القائل لم يرحل غيري وغير الباجي وأما غير نافقد تعب[1] إلى آخرين عادوا بعد التحصيل الى اوطانهم بعلم كثير وأدب غزير طيب الله ثراهم واجزل مثوبتهم، وكان اهل المغرب والاندلس ينظرون الى من قام برحلة علمية الى المشرق نظرة اكبار واجلال ، فالمشرق فيما يراه القوم قديماً وحديثاً معدن العلم وموطن المعرفة ومثابة الفضيلة ، وهذه اسفار التاريخ وكتب الطبقات التي صنفها المشارقة - كالخطيب البغدادي مصنف (تاريخ بغداد) وابي سعد السمعاني مصنف كتاب (الانساب) وابن الجوزي صاحب (المنتظم) وابن عساكر وابن النجار وابن الساعي وابن الفوطي مصنف كتاب (مجمع الآداب) وياقوت الحموي والصفدي والذهبي وابن حجر وسبط ابن الجوزي مصنف مرآة الزمان وابن خلكان وابن شاكر الكتبي وابن فضل الله العمري والمنذري مصنف (التكملة في وفيات النقلة) حافلة بذكر من رحل او لجأ الى الشرق من المغاربة والاندلسيين لتحصيل العلم وتحمل الحديث ، ومثلها في ذلك جملة من كتب المغاربة .

أما المشارقة الذين شدوا الرحال الى المغرب او الاندلس فانهم اقل من المغاربة ، ومن اشهر رحلات المشارقة رحلة ابي علي القالي صاحب الامالي الى الاندلس من بغداد ، وكانت حفاوة الاندلسيين به كبيرة ، قرأ عليه واستفاد من علمه وادبه كثير منهم، وتخرج به جماعة ، وللقالي في الاندلس اخبار اوردها المؤرخون واصحاب الطبقات ، ومن رواد المشارقة اديب عراقي ذكي الفؤاد وشاعر مجيد هو أبو العلاء إبن صاعد البغدادي ، رحل الى الاندلس من بغداد ، وحظي عند حكام تلك البلاد في عصر الدولة العامرية على انه مُنيَ بالحسد من قبل بعض أدباء عصره ولكنه شق طريقه ، وتغلب على خصومه بذكائه وعلمه الغزير .

هكذا كانت الاسفار والمواصلات بين المشرق والمغرب خطرة شاقة في العصور القديمة ، وفي هذه العصور الحديثة جدت مخاوف اخرى في سبيل الاتصال بين المشرق

---

(١) الوافي بالوفيات (٣ : ٣٣٠) وممن عنى بالترجمة له القاضي ابن خلكان في الوفيات ٢ : ٥٩٨، والمقري في ازهار الرياض ونفح الطيب ومؤلف هذه الرحلة في كتابه أدب المغاربة والأندلسيين .

والمغرب تتجـــلى في اطماع بعض الدول بخيرات العـــالم العربي . فهي تقيم الحواجز وتمنع من التزاور ، هـــذا بالاضافة الى بعد المسافة وطول الشقـة . ثم ان هـذه الدول هي التي تملك الاسـاطيل والاسراب الجوية والقواعـــد والمطارات والمواني . وهي التي تتحكم بشؤون الانتقال بين هذه البلاد وتلك . أما المشارقة من دول وشعوب فهم لايملـكون من ذلك الا القليل أو الاقل من القليل ، ولو لا ان الغربيين رواد تجارة وطلاب منفعة أي انهم يفيدون من استخدام طائراتهم واساطيلهم وقوافل سياراتهم لما مكنوا ابناء المشرق في هذا العصر من الرحلة الى المغرب ، ولمـا تيسر لاهل المغرب العربي السفر الى الديار الشرقية .

من بغداد الى الدار البيضاء :

أسلمنا أنفسنا الى الفضاء بل الى القدر والقضاء، وحلقت بنا طائرة نفاثة من مطار بغداد في طريقنا الى المغرب، وفي تمام الساعة التاسعة والدقيقة العاشرة من صباح يوم الاحد ٢/١٠/٦٠ هبطت طائرتنا في انقرة ثم بعد ذلك في الاستانة ورومة وباريس ، وكنا نحلق على ارتفاع اكثر من ثلاثين الف قدم ، وفي سرعة ٥٧٠ « ك » في الساعة ، ومع ذلك كانت رحلة جوية ممتعة لم نشعر خلالها باقل حركة او اهتزاز ونحن في الطائرة حتى ليخيل الينا ان طائرتنا واقفة في مكانها من الجو لو لا نظرات نلقيها على معالم اليابسة ، وعلى تلك الشخوص والاشـباح الارضية البعيدة :

شخوص وأشباح تمر وتنقضي   وتفنى جميعـــاً والمحرك باق

بين فرنسا والمغرب :

وفي تمام الساعة الرابعة والنصف من مساء اليوم عينه هبطت طائرتنا على مدرج (مطار أورلي) بباريس، وبعد مبيتنا ليلة الاثنين ٣/١٠/١٩٦٠ في باريس بكرنا في الذهاب الى المطار المذكور حيث اقلتنا طائرة فرنسية قديمة لا وجه للمقارنة بينها وبين الطائرة الاولى في رحلة استغرقت اكثر من اربع ساعات حلقنا خلالها على جنوب فرنسا وعلى الاقطار الاندلسية وعلى مضيق جبل طارق او بحر الزقاق كما يسميه البلدانيون العرب . ومن

هناك هبطت طائرتنا على مطار الدار البيضاء ، وكان وصولنا الى هذه المدينة المغربية في الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم المذكور .

والخلاصة قطعنا هذه المسافة الشاسعة بين بغداد والدار البيضاء في مُدة لم تزد على تسع ساعات ، وذلك على الخط الآتي : بغداد ، أنقرة ، الأستانة ، رومة ، باريس ، الدار البيضاء وكانت خاتمة مطافنا في رحلتنا من بغداد اليها بالمطارات .

للعبرة والتاريخ :

والآن وبعد أن وصلنا الى اول بلد في المغرب متجشمين عناء السفر جواً من بغداد الى هذه البلاد مجتازين على بلاد الدولة التركية ومن ثم على ايطالية ففرنسة واسبانية وهي كما لايخفى طريق ملتوية ، ولكن لا مناص من سلوكها على شدة التوائها ، بل على من يقصد مصر من تونس او بالعكس وهما من قارة واحدة ان يذهب اولاً الى رومة . وقد شاهدنا ونحن في مدريد بعثة عراقية تريد اقليم غانة وصلت بالطائرة من بيروت الى المغرب، واجتمعنا بها هناك، ومن ثم سافرت الى مدريد ومنها عادت الى طرابلس ومن طرابلس الغرب سافرت جواً الى غانة في رحلة بالطائرة تستغرق عشرات الساعات . فما هي العبرة التي نستخلصها من رحلة تبدأ من العراق وتنتهي بالمغرب الاقصى ، ولكن لامفر من المرور فيها على عدة دول اوربية ، ولا مندوحة من الانصياع لتلك النظم الاجنبية من سياسية وتجارية على ما يشوبها من تعسف في بعض الاحيان .

كانت حقوقنا مهتضمة ولغتنا ممتهنة في مكاتب شركات الطيران وفي اذاعاتها واعلاناتها فلم نسمع اذاعة الابلغة اعجمية حتى فيما يتعلق بالرحلة ــ وفي ركاب الطائرة جماعة من العرب ــ وحسبنا ما قاسيناه في مدينة النور باريس من التعنت والاجراءات التعسفية ومن خلف المواعيد والاخلال بها مع العرب والمشارقة كأنهم قوم لا حساب لهم في تلك البلاد ، وهؤلاء المرشدون وادلاء السواح في الديار الاندلسية وفي الجزيرة الخضراء يسمعونك من التعريض بماضي الامة العربية ما يدل على فساد ذوق ان لم نقل على قلة ادب ، اجل تقول ما هي العبرة التي نستخلصها من مثل هذه الرحلة ، الا يمكن ان تتم رحلتنا الجوية ضمن بلاد

العرب ؟ او داخل هـذه الاقطار الشرقية حيث لا ينال المسافرين حيف ولا تبخس لهم حقوق كما تمت قبل ذلك رحلات الاباء والاجداد في بلادهم ولو على ظهور الجمال .

ان بلاد العرب بحدودها من الخليج الى المحيط وحدة جغرافية يتمم بعضها بعضا ولكنها في الوقت الراهن ـ وقت الرحلة التي قام بها الكاتب ـ يغلب على اكثرها الخراب وينقصها العمران، ويعبث فيها المستعمرون فلا طرق ممهدة، ولا مواصلات منظمة ولا قواعد جوية في اكثر هذه الدول العربية ولا يملك اهلها ما يملكه غيرهم من اجهزة فنية ومطارات وغير ذلك مما لا غنى عنه في مثل هذه الاسفار .

لهذه العلة يضطر من يقصد المغرب الاقصى من بغداد او من دمشق او القاهرة ان يقصده عن طريق القارة الاوربية والسواحل الغربية لا عن طريق القارة الافريقية . وهي كما قلنا طريق ملتوية كثيرة النفقات ولكنها حافلة بمظاهر النشاط والحياة . واكثر مما مر اننا قوم يغلب علينا التواكل وتعوزنا روح التآزر في سبيل تحقيق مصالحنا المشتركة في بلادنا بالذات .

هذه نفثة مصدور وملاحظة استطرادية نعود بعدها الى الكلام عن المغرب وعن انطباعاتنا الخاصة عن جولتنا في هذه البلاد .

المغرب الاقصى :

كلمة عامة

تقع هذه البلاد في اقصى الزاوية الشمالية الغربية من القارة الافريقية حتى تكاد تتصل بالزاوية الجنوبية من القارة الاوربية يحيط بها البحر الشامي من الشمال ، والبحر المحيط من الغرب . ولها مراس على شواطىء البحرين ، بعضها على مقربة من المضيق او المجاز الذي يسمّى « جبل طارق » وهـذه الشواطىء الشمالية كثيرة الاوعار والشعاب ولكنها مخضلة الجنبات مخضرة البقاع، اما اقاليمها الجنوبية فتكثر فيها الاودية الرملية ، وبعضها اودية جافة ترتفع فيها درجات الحرارة احياناً ، وفي المغرب الى جهة الشمال ما بين مدينة «سلا» و«منطقة العرايش» سهول فسيحة تقوم فيها قرىً قليلة، وما اشبهها من هذه الناحية

بسهول العزاق، ويبدو لنا ان تلك السهول المترامية على درجة لا يستهان بها من الخصب وقوة الانبات ، ولا تخلو هذه الجهات من الآجام والغياض والمستنقعات . وفي هـذه المنطقة الشمالية من ديار المغرب تقوم سلسلة هضاب الريف ، وتشرف على شواطيء البحر الشامي، ومن مدنها « تطوان » و « اصيلا » و « سبته » المحتلة من قبل الاسبانيين ، ومناخ البلاد يميل الى الاعتدال في المناطق الوسطى، وهو مناخ رطب في هـذه الجهات ، ولا عجب فهو منـاخ البحر المحيط الذي تتميز شواطئه باتساعها ومناظرها الرهيبـة ، ولنـا على هـذه الشواطيء شـواطيء المحيط نزه جميلة ، وهـذه البيئـة تصلح لغرس الاشـجار والازهار ، وفيهـا غابات غبيـاء ملتفـة ، ومن اشهر انهار المغرب وادي السـوس ، ونهر مدينـة فاس ويسمى « سبو » وسبو هـذا بالجداول اشبه منه بالانهار و « ابو رقراق » نهر « سلا » و « الرباط » الذي يصب في المحيط الـكبير . وهذا النهر الذي يقال له ابو رقراق يفصل بين الحاضرتين وماؤه ملح اجاج ، وتوجد في البلاد مضافـاً الى ذلك نهيرات واودية صغيرة تنتهي مجاريها الى بحر الروم .

وسكان المغرب خليط من العرب والبربر، وليس لسكان القطر احصاء مضبوط والمشهور ان عدد هؤلاء البربر اكثر من العرب الذين تغلب عليهم مظاهر الحضارة بخلاف قبائل البربر . وهذه القبائل هي العنصر القديم من سكان البلاد وكلهم مسلمون ، هذا وفي اصل البربر اقوال ، منها ما يردهم الى عرب الجزيرة ، ومنها ما يردهم الى غير ذلك من الاصول . وفي اصل اللغة البربرية اقوال من قبيل ذلك . والمرجح ان البربر جيـل مغربي قديم في بلاده المذكورة .

وازياء العامة فيما لاحظناه وبالخاصة في الاقاليم الشمالية محتشمة فالذكور يلبسون القمصان والاقبية والعمائم على الاكثر ، والنسـاء الازر والملاءات ، واللون المفضل هو البياض ، ولا تنقصه النظافة في كثير من الاحيان ، وهذا الزي متوارث قديم وهو زي يحجب مفاتن المرأة وينأى بها عن التبرج والبذلة .

الشعب والمهرجان :

ومن الدار البيضاء وهي حاضرة التجارة ومرسى السفن في المغرب اتجهنا الى الرباط حاضرة السياسة وذلك بعد ظهر الاثنين ٣/١٠/١٩٦٠ م ، ولا تزيد المسافة بينهما على اكثر من ١٠٠ (كـ) قطعناها في طريق معبـدة مظللة بالاشجار ، واجتزنا اودية مفعمة بمياه راكدة وغابات كثيفة وبقاعاً مخضوضرة كنا نظنها فيما مضى بقاعاً جرداء ، وبعد المكث ثلاثة ايام في الرباط عاصمة المغرب وضع لنا منهج يتضمن جولة شائقة في ارجاء عدة ، منها مايقع الى الشمال ومنها الى جهات اخرى بدأنا فيها من الرباط الى طنجة وتطوان ، وبعض بلاد الريف قلعة الثوار ومعقل المجاهدين الاحرار ، وعدنا من هـذه المنطقة الشمالية ـ في اعقاب رحلة شاقة طويلة بسيارات من الحجم الكبير في الغالب ـ الى « مكناسة الزيتون » وجبل « زرهون » ودعينا الى مصيف « ايفران » وهو منطقة جبلية تكثر فيها الغابات وتتوفر المياه الجارية العذبة والمروج الخضراء وتعد « ايفران » من احسن مصايف المغرب ينتجعها الراغبون في الاستجمام . ومن مظـاهر الحفاوة بالضيوف في « ايفران » ظهور كتائب من « فرسان المغرب » المشهورين مدججين بالسلاح وكانوا يعنلون هجوماً عنيفاً يطلقون فيه النـار ولاطلاق النيران صداه في ذلك الوادي الكبير ، وكان يرافقنا في هـذه الرحلات عدد من شباب مدينة فاس وغيرها من حواضر البلاد عنوا عناية فائقة بكل ما يوفر لنا الراحة والمتعة والطمأنينة على اننا لاحظنا ايضاً ان الرجل العادي او ابن الشعب المغربي في اكثر الحواضر التي زرناها لا يعرف شيئاً كثيراً عن هـذه الرحلات . ولا يلم الماماً كافياً باهداف المهرجان ـ مهرجان جامعة القرويين ـ ومن رأينا ان السلطة المغربية مسؤولة عن هذه الجمجمة والسكوت .

لا يخامرنا ادنى شك بحسن نية السلطات العليا المسؤولة في دعوتها الى اقامة مهرجان القرويين باذلة كل ما في وسعها في سـبيل حفاوتها بالضيوف او الوفود التي امت بلادها متخذة كل الوسائل لتجعل من رحلتهم الى المغرب رحلة ممتعة مفيدة ، ولـكن لا مناص لنا من القول ايضاً ان مظاهر الحفاوة البالغة وحدها لا تكفي ، فهذا المهرجان ككل مهرجان من نوعه يرمي الى هـدفين الاول الترحيب بالوفود التي امت البلاد وقد حصل ذلك ، والثاني

ـ وهو الاهم ـ الاحتفاء بالفكرة ذاتها التي اقيم من اجلها المهرجان وغرسها في نفوس الجمهور وتلقينهم مغزى الاحتفال برسالة القرويين .

كنا نود ان يحتفل اخواننا المغاربة حكومة وشعباً باهداف مؤسستهم الرفيعة ، واهتبال هذه الفرصة لتبليغ رسالة القرويين وهداها الى طبقات الشعب والنشء الجديد لتبقى هذه الرسالة ـ وهي رسالة العروبة والاسلام ـ حية في نفوس الجماهير ، كانت موا كبنا تسير في شوارع الرباط وطنجة وفاس وتطوان ومكناسة حيث يتجمهر من حولها الناس وهم لا يعلمون ماهذه المواكب ومن أين جائت ؟ ولاحظنا ان رجل الشارع لايعرف عنها أكثر من أنها مواكب سواح ، وكانت الصحافة والاذاعة اللاسلكية واجمة كذلك مع انها صحافة واذاعة رسميتان فلا الصحافة ولا الاذاعة ولا الاحزاب ولا الجمعيات كانت معنية بهذا العيد العظيم ، ويخيل الينا ان المعنيين بالشؤون العامة من اخواننا المغاربة انقسموا ازاء رسالة القرويين ، وازاء كافة الاحتفالات بهذه الرسالة الى فريقين فمنهم المندفع في تأييد فكرة الاحتفال وتعظيم شعائره الى حد بعيد ، وشباب المغرب الواعي من هذا الفريق . وهناك فريق آخر هم الفريق الفاتر المتهاون ، ومنهم فيما يبدو لنا من يحن الى عهد قديم حوربت فيه رسالة القرويين . وهذا الفريق لا يطيب له التوسع في اقامة هذا المهرجان .

بين فاس والدار البيضاء :

وقد تفضل باستقبال ضيوف المغرب في مطار الدار البيضاء جماعة من أصدقائنا الافاضل مغاربة وعراقيين جاؤا من الرباط ، ولا تقل المسافة بين الرباط والدار البيضاء عن مائة (ك) ومن ثم واصلنا سفرنا بالسيارات الى عاصمة البلاد اي مدينة الرباط حيث حجزت اللجنة المكلفة باستقبال الضيوف غرفاً لهم في بعض فنادق المدينة ، ولا بد لنا من القول اننا لم نمكث في الرباط إلا اياماً معدودة حتى رسم لنا منهج تمكنا بواسطته من زيارة مدن الشمال ومنها طنجة التي دخلت ضمن حدود البلاد في الزمن الاخير وكانت قبل ذلك منطقة دولية حرة كما يقولون ، ومدينة تطوان ، وهما من اشهر حواضر الشمال الواقعة على شواطيء المحيط

الكبير. هذا ومن شواطيء هاتين المدينتين يمكننا أن نتطلع - وقد تطلعنا فعلا - الى شواطيء الاندلس والجزيرة الخضراء شواطيء « الفردوس المفقود » المؤدية الى المدن الآتية : قادس ، جيّان ، غرناطة ، قرطبة ، اشبيلية ، طليطلة وغيرها من حواضر الاندلس في عصورها الذهبية الاسلامية ، ومن اشهر مدن المغرب التي تهيأت لنا زيارتها في جنوب البلاد ووسطها الرباط ومكناس وفاس ، وهي اعني مدينة فاس من اجلّ مدن المغرب الاقصى ، وفيها اقيم الاحتفال الكبير بجامعة القرويين ودام عدة ايام ، ولا تكفي هذه العجالة للبحث في تاريخ الحاضرة المذكورة غير اننا نقول : اذا كانت الرباط قاعدة المغرب السياسية فان فاس قاعدة الثقافة الاسلامية هناك ، وعناية ابنائها في الحفاظ على تراث الاسلام لا يحتاج الى دليل ، وحسبنا « جامعة القرويين » التي تخرّج منها عددٌ غير قليل من العلماء المعروفين والابطال المجاهدين . ولما حوربتْ العربيّة والثقافة الاسلامية في المغرب على عهد الحماية طبق خطة استعمارية خبيثة كان للمجاهدين المتخرجين من جامعة فاس ابلغ الاثر في مقاومة تلك الخطط ، والمحافظة على تراث المسلمين هناك حتى هذا اليوم ، ومن اشهر مدن المغرب بعد ذلك (المحمديّة) او مدينة فضاله حيث تبنى مصفاة صغيرة للنفط وتعد المحمدية من المدن الصناعية هناك .

الى فاس :

وفي مساء السبت ٨ تشرين الاول سنة ١٩٦٠ غادرنا « مكناسة الزيتون » الى فاس بطريق (صفرو) والمسافة بين البلدين لا تزيد على (١٦٠ ك) سلكناها في طريق معبدة مظللة بالاشجار الى حاضرة الثقافة في المغرب بلد ادريس الاول ودار العلم ، وفي الايام التالية التي قضيناها في فاس كان المنهج يقضي بزيارة ضواحي المدينة ، والقيام بجولة في القسم القديم وزيارة معالمه وبالخاصة جامع القرويين ومدرسته وخزانة الكتب المشهورة هناك ، وكان يرافقنا عدد من افاضل المغاربة وكبار الموظفين في الرباط ، ولاحظنا في البلاد ضرباً من الكبت والحجر على الافكار لعله من بقايا ذلك العهد الذميم عهد الحماية . ولا تخلو الاحياء القديمة من المدن وفي مقدمتها احياء فاس من مظاهر الفاقة والحرمان ، ولنا الامل كله ان تجتث حكومة المغرب الفتية

في عهد الاستقلال مساوىء عهد الحماية من عنف وارهاق واذلال لذلك الشعب الوديع وان يُشعر المسؤولون هذا الشعب بسياسة الرفق واللين في هذا العهد الجديد ، وهذا يتوقف بالطبع على تطهير جهاز الحكم تطهيراً تاماً من اذناب عهد الاستعمار ، ولاحظنا ايضاً ان الاحياء القديمة في حواضر المغرب لا تتوفر فيها شروط الصحة خصوصاً في فاس القديمة فانها لا تخلو من المستنقعات ولكنها قليلة المجاري والمصارف التي تدفع المياه الآسنة الى اماكن بعيدة .

تستحق مدينة فاس القديمة كل رعاية من السلطات الحكومية في ناحية التنظيم والتجديد ، والتخطيط لا سيما في الجهات المحيطة بجامع القرويين فان زوار هذا الجامع يتكاثرون في العهد الحاضر ، والجامع واقع في مطمئن عميق من الارض لا يصل الزائر اليه الا بشق النفس . ومن الضروري ان يحاط الجامع برحاب او افنية واسعة وميادين تصلح لمرور السيارات ولكن لا اثر لشيء من هذا القبيل .

يوم الاحتفال :

في يوم الثلاثاء ١١ من تشرين الاول سنة ١٩٦٠ نزلنا ـ سعياً على الاقدام ـ الى مدينة فاس القديمة لحضور الحفلة التي جرت بقاعة الخزانة الكبرى التابعة لمعهد القرويين وكانت الحفلة كبيرة شهدها كبار رجال الدولة من المغاربة يتقدمهم الملك ، وشهدها كذلك رجال السلك السياسي شرقيين وغربيين وممثلوا الجامعات والمعاهد العلمية الذين دعوا من مختلف الجهات ثم توالى القاء خطب وبحوث يتألف منها مجلد ضخم ، وحسبنا ان نرجع الى السجل الذي انتظم ما القي في ذلك الموسم ، وقد تم نشره اخيراً بعنوان « الكتاب الذهبي » او «جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الالف» ولنا في هذا الكتاب الذهبي كلمتان احداهما في معنى « تحية المهرجان » القيت في الجلسة الاولى التي عقدت في قاعة « الحي الجامعي » بعد ظهر يوم الاثنين (١٠ تشرين الاول ١٩٦٠) وفي هذه الكلمة عنيت عناية خاصة باستنهاض القوم والتنويه بماضي المغرب في بث العلم ونشر الثقافة الاسلامية [١] والكلمة الثانية عنوانها « الطبيعة في المغرب » القيت بعد ذلك [٢] .

---

(١) الكتاب الذهبي : ٤٩ .   (٢) المأخذ المذكور : ٩٦ .

وهكذا استغرقت مدة مكثنا وتجوالنا في المغرب خمسة عشر يوماً منها خمسة في الرباط ومثلها في فاس كانت حافلة بالمتع والفوائد العلمية والادبية حيث زرنا بلاداً عزيزة علينا لم نشهدها من قبل ، ولقينا فريقاً من ابنائها الافاضل المعنيين بشؤون العلم والادب ، واغتبطنا بسعة آفاق عدد منهم واطلاعهم على شؤون المشرق والعالم الاسلامي ، وفاوضنا جماعة من هذه الطبقة في موضوعات شتى علمية وثقافية .

مجالس المغرب :

وفي بعض مجالس الرباط وفاس ، وليالي طنجة ومكناس كانت تدور بين فريق من اخواننا المغاربة وضيوفهم المشارقة احاديث شائقة تناولت موضوعات شتى لبعضها صلة بالتاريخ ، وللاخرى علاقة بالادب والثقافة العامة ، وللثالثة رابطة بالتعليم والتربية ، ومنها احاديث تتصل بالخطين المغربي والاندلسي الشايعين هناك والمقارنة بينهما وبين الخط المشرقي ، والمفاضلة بين هذه الخطوط . ومنها حديث شائق عن ماضي المغرب في المحافظة على سيادته واستقلاله ، وتميزه بذلك على جملة من البلاد الاخرى ، وحديث عن التعليم قديمه وحديثه وتنسيق مناهجه ، وآخر عن اللغة والثقافة اللغوية .

برامج التعليم ومشكلة تنسيقها :

مشكلة توحيد المناهج قديمةً وحديثةً وتنسيقها في التعليم مشكلة عويصة تكاد ان تكون عامة في كل قطر عربي او اسلامي وجد فيه نوعان من برامج التعليم نوع اسلامي قديم تسير عليه المدارس الدينية او المدارس الموقوفة التي تُعنى بدراسة علوم الشريعة وفنون اللغة العربية ، وتُخرّج اخصائيين يحملون شهادتها اواجازة اساتذتها ، ولا غاية لهم الا نشر العلوم المذكورة وتعزيز مبادىء الدين الحنيف لا يطلبون على ذلك جزاءً ولا شكورا ، هذا هو الطراز الاسلامي القديم من التعليم ، واحسن مثال له مدارس النجف ومدارس

بغداد والبصرة والموصل في العراق ومعاهد الأزهر في مصر والزيتونة والقرويين في فاس ، ونرى الى جانبه الآن هذا الطراز الحديث من التعليم الذي تتعهده الدولة اليوم حيثما وجد من البلدان على احدث المناهج في التربية والتعليم ، وتعنى فيه بدراسة علوم الطبيعة والرياضيات والعلوم الاجتماعية والطبية والفلسفية بلغات اجنبية في المعاهد العالية غالباً ، وتخرج اخصائيين يحملون شهاداتها لسد حاجة الدولة من هؤلاء المتخرجين ، ومن خصائص هذه المدرسة الحديثة ان جملة من طلبتها والمتخرجين منها متأثرون بضرب من الفلسفة المادية او الواقعية كما يسمونها ، ولما انتشر هذا الضرب الحديث من التعليم ، وكثر عدد معاهده وتزايد الاقبال عليها للحصول على بلغة العيش ، وتضاءلت الرغبة في غيره من الدراسات ، حاذر بعض المعنيين بشؤون التربية من عواقب الجفاء او القطيعة بين مناهج المدرستين . ومن ههنا نشأت في المغرب وغير المغرب فكرة التوحيد ودمج التعليم بنوعيه في مدرسة واحدة تشرف عليها الدولة . ولا يخفى ما يعترض فكرة التوحيد هذه من مصاعب ومشكلات .

بحوث التربية في المهرجان :

عني كاتب هذه الكلمة فيمن عني بالنظر بشؤون التربية . وكانت منذ عهد بعيد شغله الشاغل في العراق ، وفي غيره من البلاد التي قدر له ان يزورها . ولما شهد احتفال المغرب الاقصى حكومة وشعباً بعيد القرويين في اواخر خريف ١٩٦٠ اهتبلها فرصة للبحث عن هذه الناحية هناك ، وقد جمعتنا هذه الرحلة بفريق من افاضل المغاربة والمشارقة فاوضناهم ، وبحثنا معهم شؤون التربية ، ووقفنا على آراء ووجهات نظر مختلفة ، ولم تخل هذه الاجتماعات ممن ينصر المدرسة القديمة ، ويشيد بميزاتها واثارها الجميلة ، ويفضلها على المدرسة الحديثة ، ولم تخل ايضاً ممن يفضل المدرسة العملية الحديثة ، ولاحظنا ان هناك فريقاً ثالثاً يذهب الى امكان التوفيق بين المدرستين ، ولا يخفى ان انصار المدرسة الحديثة ينعون على اصحاب المدرسة القديمة ضعفهم وجمودهم ، كما ان انصار المدرسة القديمة

يؤاخذون اصحاب المدرسة الحديثة غالباً بتقليدهم وزهدهم في تراثهم القديم او احتقارهم له وتقديسهم لتراث الغربيين ، وقد رأينا انصار المنهج القديم يحتجون لمذهبهم غالباً بضياع التخصص او التوسع في الدراسات الاسلامية اذا حلت المشكلة على اساس توحيد التعليم والاطاحة ببرامج المدارس الاسلامية ، والخلاصة هناك اراء متضاربة في مصير المعاهد الاهلية القديمة والبرامج المتبعة فيها ومنها مدرسة القرويين فمنهم من يرى تغيير تلك المناهج وادماج تلك المدارس في نوع من النظام الجامعي الحديث بحجة انتهاج منهج موحد في التعليم ، ومنهم من يرى ضرورة المحافظة على برامج المدارس القديمة بحذافيرها وابقائها على ما هي عليه الآن ، وفريق ثالث يرى ان يوكل حل هذه المشكلة ، واصلاح المعاهد القديمة، وتحديد معنى الاصلاح المقصود الى مؤتمر اسلامي قوامه علماء اكفاء مخلصون متبحرون في تلك الدراسات .

في حفلات القرويين:

رسالة القرويين . تمسك المغاربة بالدين . القديم والجديد . ملوك المغرب وجامعة القرويين المعارف الاسلامية . الحي الجامعي في مدينة فاس . خزانة الكتب

كان مهرجان فاس القائم بمناسبة مرور احد عشر قرناً على تأسيس « القرويين » ـ جامعاً ومدرسة وخزانة كتب ـ مهرجاناً شائقـاً ، وذلك في ضحوة الاثنين ١٠ تشرين الأول ٩٦٠ شهدته وفود الجامعات وجمهرة من المعنيين بالحركة العلميـة والفكرية شرقاً وغرباً ، وشهدته طبقـات أخرى من مختلف أنحـاء المغرب يتقدمهم عاهل البـلاد ، وقد قوبل موكب المهرجان بمظاهر الفرح والابتهاج حيث انحدر الناس من طريق او من باب يسمى « باب ابي الجنود » إلى منخفض فاس القديمة التي يقع فيها الجامع الكبير وما يلتحق به ،

وفي هـــذا الطريق النافذ الى الجامع مخازن ومنعطفات ضيقة غير قليلة استقبلنا اهلها بهتافات عالية بحياة الدول العربية والأمة الاسلامية حتى مدخل الجامع ، وحيا المحتفلون الجامع العظيم وطافوا في ارجائه ، وفي الجامع تُحف نفيسة من ابواب ومســـارج او « ثريات » وطرف مختلفة يقال انها جلبت من الاندلس او من جامع « اشبيلية » وزين بها جامع القرويين ثم ذهبنا إلى طابق تقع فيه المكتبة ، وإلى جنبها قاعة كبيرة غصت بالناس وكانت المحافل المعنية بهذا الاحتفال تتحدث عن رسالة القرويين الدينيـة ومناهجهـا في الدراسة ، وعن إنشاء جامعة جديدة تقوم على أســـاس التوفيق بين المناهج المختلفة والحاضرون هناك فرق وأحزاب لكل فريق رأيه ومذهبه في فكرة التوفيق بين المناهج ولاحظنا ان هذا الحديث أثار ضرباً من القلق في بعض المعاهد القديمة واقضّ بعض المضاجع في بلادالمغرب ، تحدَّث اليَّ بذلك فريق من العلماء الاجلاء في بعض ايام المهرجان، ولا انسى ان الحديث كان في يوم المهرجان وفي قاعة الاجتماع بالذات .

موقف للاساتذة :

واتخذ موكبنا طريقه الى « جامع القرويين » وكان فريق من العلماء في افنية الجامع يتلون الاذكار والادعية لدفع هذه الغاشية فلم يشاركوا في اقامة هذا المهرجان من الاساس فضلا عن المشاركة في الاجتماع المذكور : وكانت المدرسة القديمة معطلة او مضربة على الاصح فلا طلبة ولا اساتذة لان طلاب المرحلة الابتدائية الحقوا بالمدارس العامة وطلاب الاقسام الثانوية والعالية ما زالوا يتساءلون عن « الحي الجامعي الجديد » .

فكرة التوحيد في خطاب الملك :

استهل محمد الخامس رحمه الله مهرجان القرويين بخطاب جامع يشعرك بما يتميز به الخطيب من الوعي والاخلاص وسلامة التفكير، القاه على الحضور في قاعة خزانة الكتب بجامع القرويين ونوه فيه برسالة القرويين واهدافها جامعاً ومدرسة قائلاً : « يعود الفضل في ذلك الى تشبث المغاربة بالدين الحنيف ، وهيامهم بكل فضيلة وتقديسهم للعلم وتقديرهم للعلماء في هذه الجامعة التي مكنت

للاسلام في نفوس المغاربة ، واطلقت السنتهم بالعربية، وخطت لهم المنهج الذي ساروا فيه زهاء الف عام فلا عجب اذا صارت مهوى الافئـدة وقبلة الانظار واستأثرت بعطف جميع الملوك الذين تعاقبوا على حكم المغرب ورعايتهم وتأييدهم ، وتسارع الى التدريس فيها علماء الاقطار المغربية والاندلسية ، وتسابق الطلبة من القارة الافريقية ومن اوربة لطلب العلوم التي كانت تقرأ فيها من علوم الشريعة واللغة الى العلوم المشاعة بين البشر، ولئن تخلفت الجامعة القروية عن مماشاة التطور العلمي في وقت من الاوقات فانها لم تتخلف عن اداء رسالتها اذ انقلبت الى حصن تلوذ به حضارة الاسلام وثقافة العروبة في الجانب الغربي من بلادها، ولما وضعت الخطط لانقاذ المغرب لم يغرب عن احد اهمية الدور الذي يمكن ان تقوم به « جامعة القرويين » في نهضـة المغرب الجديدة فوضع لها نظام جديد ، وادخلت على برامجها تحسينات ، ومن مظاهر العناية والتجـديد الذي ادخل عليها انشاء « حي جامعي » كبير نقلت اليه الدراسة من جامعها العتيق ، وتعليم العلوم الحديثة باللغة العربية الى جانب العلوم الاسلامية، ورفع مستوى الدراسة فيها » .

هـــذا ملخص ما ورد في الخطاب الذي استهل الملك به ذلك الاحتفـال ، وفيه اشارة الى توحيد التعليم ، والى ازالة الفوارق المحدثة فيه ، وفي هذا الخطاب ايضاً تلميح الى توجيه الثقافة في المغرب نحو هدف « القرويين » ورسالتها ، وكان لهذه الالتفاتة مغزاها عند المعنيين بحل هذه المشكلة . واشاد الملك في آخر خطابه بماضي « مدينة فاس » الفيحاء احدى حواضر الاسلام الكبرى وقواعـد العروبة العظمى التي ظلت زمناً طويلاً المنار السامي الذي يهدي رواد المدنيـة والمورد العذب ينهل منه طلاب المعرفة من اقطار المغرب والقارة الافريقية » .

قوبل هذا الخطاب من قبل الحشد الماثل في القاعة بكثير من مظاهر الاستحسان والتقدير خصوصاً عنـد التأكيد على الاتجاه نحو هدف القرويين في التجديد والتوحيد ،

وتكييف التعليم بموجبها ، وتهدئة روع العلماء الوجلين الموجسين خيفةً من التفريط بذلك التراث الاسلامي الثمين تحت عنوان التوحيد او التجديد، والراغبين في نشر التعليم على ضوء تلك الاهداف والمبادئ المعروفة في ماضي القرويين .

ويقول بعض هؤلاء الاساتذة : صحيح اننا تخلفنا عن مواكبة غيرنا من الامم الناهضة ، ولم نأخذ بأسباب نهوضها وسيادتها وعوامل الرخاء والرفاهية فيها ، ومن واجبنا وقد التفتنا الى ضرورة النظر في ذلك كله ألاّ نضطرب أو نتخبط في سيرنا ، وان نتحاشى التهافت على قشور الحضارة دون لبابها ، وعلى اعراضها دون جواهرها ، وألاّ نقلد الغربيين في الظواهر الضحلة ، بل يتحتم علينا قبل كل شيء النظر بعمق في اسرار تفوق الامم وغلبتها ، ويخطئ من يظن ان ذلك يتم بتقليد القوم في ازيائهم اوالتشدق بلهجاتهم اواصطناع عاداتهم كأنهم مَثَلُنا الذي يحتذى في كل شيء ، ومن الضروري ان نحدد اغراضنا وان نسلك اقوم السبل للوصول اليها ، ولنا في بعض دول الشرق والغرب اسوة .

المحافظون :

هذا ومما لاشك فيه ان تضارب الآراء واختلاف وجهات النظر الى هذه المشكلة . وفي اوجه حلها شطر الناس لا في المغرب وحده بل في بقية الاقطار الاسلامية الى فريقين محافظين ومجددين ، وهؤلاء المحافظون طبقة تنكر تقليد الغربيين في اساليب التربية ، ومن رأيهم ان تربية نشئنا على تلك الانماط الغربية يؤدي الى الانحلال ، ويقول هؤلاء المحافظون ايضاً : ان افضل علاج لهذا التخبط ينحصر في المحافظة على منهج السلف في سيرتهم وعقائدهم وآدابهم ، وفي صيانة تراثهم ، وفي النهج على منوالهم في تقدير الفضيلة وتهجين الرذيلة .

المجددون :

هؤلاء المجددون على الضد من المحافظين يزعمون ان الحضارة الغربية كل لا يتجزأ

وليس لنا ان نختار منها فان كل ما فيها صلاح ، وهم يكثرون من الحديث عن مزايا الغرب وحضارته وعن الغربيين وفضائلهم في عاداتهم واخلاقهم وانماطهم في الحياة ، ويدّعون ايضاً ان الشرق لا ينهض الا اذا حذا حذوهم ، وهم بعد ذلك على اقسام منهم الغلاة الذين يحتقرون روح الشرق ، وما جبل عليه الشرقيون ، ويهزأون بالمقدسات على انهم يقدسون الغرب على كل حال .

هذا ونلاحظ ان هناك فريقاً وسطاً بين هذين الطرفين يذهبون الى امكان حل هذه المشكلة على اساس الجمع بين القديم والحديث ، ويقولون : ان بعض مناهج التربية التي عني بها اجدادنا لا تصلح لنا بحذافيرها هذا اليوم ، كما ان بعض مناهج التربية الغربية لا تصلح لنا على علاتها وشوائبها كذلك .

ولما انتهى الاحتفال في قلب المدينة القديمة ، او في المنحدر الى جامع القرويين ، وكان ذلك عند الظهيرة تعيّن علينا ان نعود مصعدين في مشقة بالغة ، واخذ الجهد مأخذه من الضيوف بعد الجولة في منحدر القرويين ، وكانت بهم حاجة ملحة الى مركبة او سيارة ولا سيارة هناك ، وادرك الرفاق من اخواننا المغاربة حراجة الموقف ، وطالبوا الجهات المختصة بسيارة فلم يسعف الطلب ، واخيراً اتصلوا بالقصر الملكي ، وبعد اخذ ورد حضرت سيارة صغيرة انقذتنا من تلك المشكلة .

حديث العربية في المغرب :

حديث العربية ولهجاتها في هذا العصر ذو شجون ، وقد انتابت هذه اللغة في العالم العربي شرقاً وغرباً علل مختلفة اضعفتها وانهكت قواها ردحاً طويلاً من الزمن ، وكان ما اصاب العربية في المغرب اخيراً اضعاف ما اصابها في المشرق ، وذلك بسبب كلب الاستعمار ومناوأته لكل مقومات الحياة في هذا القطر اكثر من سواه ، ومن هذا القبيل ان فرنسة استطاعت

ان تجعل من الفرنسية لغة عامة على شكل لا نظير له في غير هذه البلاد ، ولما انتهى عصر الحماية جابه المغاربة مشكلات لغوية خطيرة في المدرسة وفي دواوين الرسائل والانشاء ومصالح الدولة كافة ، والخلاصة انتقل الى المغرب في عهد استقلاله ميراث ثقيل ومشكلات مختلفة اجتماعية وثقافية واقتصادية ، ولاحظنا ان اخواننا ابناء المغرب جادون في وضع خطة تكفل حل هذه المشكلات .

لا بد لنا من كلمة عامة نمهد بها لهذا البحث بحث اللغة العربية في المغرب ونتقدم بها على الطريقة التالية :

كانت فتوح المسلمين فذة في بابها من حيث سرعتها الخاطفة وحملتها الصاعقة على الفساد في بلاد القياصرة والاكاسرة والفراعنة حتى شوهدت مقانب المسلمين تقف على شطئان المحيطات قبل مضي المائة الاولى من الهجرة ، وهناك ناحية اخرى لا تقل شأناً عن اتساع الفتوح ، ذلك ان تلك الامم المغلوبة على امرها تنازلت للفاتحين عن مشخصاتها ومقوماتها من لغة وآداب وعادات طائعة غير مكرهة . استعربت فارس وما وراءها من المشرق ، واستعربت افريقية وما بعدها من المغرب الى اقاليم القارة الاوربية ، ولسائل ان يسأل ما هو السر في تنازل هذه الامم عما تنازلت عنه ، وما هي بواعث رغبتهم عن لغاتهم الى لغة العرب ، والجواب ان تلك الامم كانت مفتقرة اشد الافتقار الى دعوة الاسلام والى ما في شرائع الاسلام من يسر وسماحة وعدالة في ميزانها ونظامها متبرمة بفساد اوضاعها من النواحي المذكورة ، فلا عجب اذا اقبلت على العقيدة الجديدة واعرضت عن تلك الأوضاع القديمة .

كانت العربية في عصر الفتح لغة دين يعبد بها الله جل شأنه ، ويتلى فيها كتابه

وسرعان ما تحوّلت الى لغة علم وسعت فيض العقول وثمرات القرائح والمواهب والفضل في ذلك كله يعود الى تلك الدعوة التي انكرت الجهل ونددت بالجمود، ومجّدت العلم والحكمة، وحثت الناس على اطلاق الفكر وفك الاغلال.

لم يكن نصيب القيروانيين والمغاربة والاندلسيين نزرا من ذلك الفيض كما لا يخفى وذلك بعد دخولهم في الدين، فاصبحت هذه العربية لغتهم في المخاطبات ثم اصبحت لغة الدواوين والتأليف والتعليم والقضاء في جميع الدول التي قامت في المغرب باقسامه وفي الاندلس، وهذه الدول التي كونتها قبائل المغرب القديمة مثل المرابطين والموحدين والمرينيين ومن تلاهم لم تعرف في دواوينها وفي ترسلها غير العربية، ولم يكتب بغيرها حملة الاقلام، ولنا ان نقول ان اعلاماً من البربر الاقحاح بزوا غيرهم في خدمة العربية وعلومها، وحسبنا منهم ابن آجرّوم الصنهاجي من اهل فاس صاحب المقدمة. والجزولي مؤلف الجزولية، وهما من أبناء قبائل المغرب في الصميم.

وصف السيوطي ابن آجروم [1] بالصلاح والبركة والاحاطة بعلم النحو قائلا: «ومما يدل على صلاحه عموم نفع المبتدئين بمقدمته التي صنفها وهو مجاور بمكة ومعنى «اجروم» بلغة البربر «الصوفي الفقير» ويستنتج السيوطي من دراسة هذه المقدمة المشهورة ان صاحبها على مذهب اهل الكوفة في علم النحو كما يظهر ذلك من مصطلحاته التي استعملها في المقدمة وكانت وفاته بفاس سنة ٧٢٣. هذا وهناك من يرى ان كتاب «الجمل» للزجاج هو اصل «الاجرومية» الصنهاجية، اما الجزولي عيسى بن عبدالعزيز بن يلل بخت ـ ومعناه المحظوظ بالبربرية ـ فهو صاحب الرسالة المشهورة في النحو، وفي نسبه اسماء بربرية

---

(١) البغية (١٠٢).

ترجمها المعنيون بكتابة سيرته ، ومنهم السيوطي في البغية توفي سنة ٦٠٧، والخلاصة لا يمكن لبلد انجب هذه الطبقة من حذاق العربية ان تموت او تضعف هـذه اللغة فيه . ولذلك فشلت محاولة كل دولة اجنبية ناوأت اللغة العربية في المغرب ، وآخرها فرنسة التي فرضت حمايتها على المغاربة وسيطرت عليهم اكثر من مائة سنة .

اثر المغرب في حفظ العربية :

وقد عـد ابن خلدون بلد المغرب حصناً من حصون اللغة العربية كمصر والشام والاندلس وذلك من بعد انحلال الدولة العباسية بغلبة التتار ، ويرى ابن خلدون ان المغرب من الدول التي عاشت بها العربية بعـد موتها ونسيانها في بلاد المشرق التي تغلبت عليها دول المغول ، وعد منها العراق ، ولا يخلو كلام ابن خلدون في هذا الفصل الذي عالج فيه حياة اللغة العربية في المغرب واندراسها في العراق والمشرق ـ على ما يقول ـ من مبالغة او تهويل ، والغالب انه اعتمـد بعض الاقاويل المرسلة والروايات الضعيفة فان العربية لم تمت في العراق والمشرق في عصر المغول على الشكل الذي صوره ابن خلدون . وقد انتهى مطاف ابن خلدون بالديار المصرية والشامية والحجازية ولم يصل الى الخطة العراقية ليتحقق مما قال .

لهجة المغاربة :

تعددت لهجات العربية بتعدد البلدان التي يتخاطب اهلها بها ، ولا ينكر اثر البيئة في اختلاف اللهجات فكانت للبدو من العرب لهجتهم وللحضر لهجتهم . ولهجات البدو والحضر انفسهم تختلف باختلاف المكان والزمان من عزلة او اختلاط او جوار او اتصال بشعوب اعجمية ، ولا شك ان لهجة المغاربة في حواضرهم ومدنهم الكبيرة احدى لهجات العربية الا انها مشوبة بعـدد غير قليل من الكلمات البربرية والعامية المغربية والفرنسية ، وقد بذل الفرنسيون جهداً بالغاً في نشر لغتهم ببلاد المغرب المنكوبة بسلطانهم الاستعماري

خصوصاً بلاد الجزائر او المغرب الاوسط لاحتلالهم اياها قبل غيرها من الاقطار . فاصبحت الفرنسية لغة عامة كما بدا لنا في بعض المدن والحواضر. على اننا لم نجد اثناء الرحلة والانتقال من جهة الى اخرى في المغرب صعوبة في التفاهم او التحدث الى من تحدثنا اليهم بالفصحى او بلهجة قريبة منها ، وبناء على ذلك فاحسن اداة للتفاهم فيما اذا اختلفت اللهجات العامية هي الفصحى او لهجة سليمة قريبة من الفصحى ، وقد دلت التجربة على ذلك . هذا وقد لاحظنا ان الفصحى لا يحسن التكلم بها في المغرب الا المثقفون ، وهؤلاء قلة في البلاد ، وجلهم حملة شهادات مدرسة القرويين او بعض المدارس المماثلة لها. او حملة شهادات جامعية اخرى، وقد حمدنا تجربتنا كما قلنا في التفاهم بالفصحى — لغة القرآن والذكر الحكيم — في مختلف الاقطار الاسلامية ، ومن ذلك يتضح فضل مؤسسة القرويين في المحافظة على العربية ، وفي اشراب نفوس المغاربة روح الدعوة الاسلامية والتمسك بالدين الحنيف وصيانة تراث العروبة .

لهجة ابناء فاس ، اساتذة القرويين :

اما العلماء واساتذة القرويين منهم خاصة فلم يتسن لنا الاجتماع باكثرهم لضيق الوقت ولمقاطعة من قاطع منهم هذا المهرجان واضرب عن الاسهام فيه على ان من رأينا منهم كان مثالا في التواضع وحسن السمت ولطف اللهجة ، ولهذه العلة ، ولمّا امتازت فاس بجامع القرويين ومدرسته وخزانة كتبه الى غير ذلك من مدارس ومساجد وخزائن كتب وجدت فيها رأينا لهجة ابناء فاس اسلم لهجات المغاربة واقربها الى الفصحى ، وما اشبهها من هذه الناحية بلهجة اهل القاهرة في مصر او دمشق في سورية او النجف في العراق ، او لهجة كل بلد يعد مركزاً للدراسات الاسلامية والعربية الاصيلة فالفضل في ذلك يعود الى تلك الدراسات .

مصطلحات المغاربة :

تدور على السنة المغاربة هذا اليوم خصوصاً على السنة اصحاب الدواوين والمترسلين مصطلحات عربية خاصة لا تستعمل في اقطار العالم العربي الاخرى، من ذلك كلمة (المخزن) يعنون بها «السلطة» او «الحكومة» و« المشور» على وزن محور يعنون به قصر السلطان او دار الحكومة يجتمعون فيها للمداولة وتبادل الرأي في القضايا العامة ، ومن مصطلحاتهم كلمة (الحاجب) اطلقت على بعض الاماكن والضياع في منطقة مكناسة الزيتون ، وقد رأينا في طريقنا الى مصيف « ايفران » قرية جميلة تسمى « الحاجب » ، وهذه المصطلحات موروثة من دول مغربية قديمة ، فالحاجب في مصطلحات قدماء المغاربة والاندلسيين تعني رئيس الوزراء او نائب الملك ، ولعل هذه الجهة التي اطلق عليها هذا الاسم في طريقنا الى مصيف « ايفران » كانت مملوكة لرجل من اصحاب هذه الرتبة ، قال ابن سعيد ونقله المقرى[1] « واما قاعدة الوزراء في الاندلس فانها كانت في مدة بني امية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة يختصهم بالمشاورة ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه « الحاجب » الى ان كانت ملوك الطوائف فكان الملك منهم يعظم الحاجب في الدولة المروانية ، واذا كان نائباً عن خليفتهم يسمى الحاجب، وكانت هذه السمة اعظم ما تنوفس فيه وظفر به وهي موجودة في امداح شعرائهم وتاريخهم » .

بحث ابن خلدون عن الحجابة :

وفي الفصل الذي عقده ابن خلدون في المقدمة عن مراتب الملك والسلطان بحث ممتع عن الحجابة في دول المغرب والاندلس، وعن كبرها طوراً وصغرها تارة ، وانها كانت تعدل رتبة

---

(١) نفح الطيب (١/١٠١) .

الوزارة ثم رتبة النيابة عن السلطان في الدولة العامرية ودولة بني أمية قبل ذلك ، ولم يزل لها هذا الشأن فارتفعت خطة (الحاجب) ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فاكثرهم يومئذ يسمى « الحاجب » ومدلول هذه الكلمة في غالب الاحيان هو مدلول كلمة (الدوادار) في المشرق او في الدولة العباسية وبعض الدول التركية في مصر والشام ، واما رتبة الحاجب في المشرق فانها دون ذلك وكذلك في بعض دول المغرب ، قال ابن خلدون : وأمّا دول (زناتة) واعظمها دولة بني مرين فلا اثر لاسم الحاجب عندها وكذلك في بني عبد الواد » .

في العامية المغربية :

العامية المغربية كما قلنا خليط من الفاظ عربية وبربرية وفرنسية ، ومن قواعد هذه اللهجة قلب الياء في بعض الافعال والالفاظ الفاً او همزة فيقولون في مثل (يكون) (اكون) وفي (يقول) (اقول) وفي يدوم ادوم وفي يعيش ويطير اعيش واطير وفي ينام انام بهمزة مكسورة بدل الياء ، ومن الفاظهم الغريبة الشائعة كلمة (وَخّي) بالتضعيف يستعملونها مكان كلمة (حاضر) في اللهجة المصرية او (طيب) في اللهجة العراقية ، وقد اختلفت الآراء في تخريج هذه الكلمة ، وسألنا بعض ادباء المغاربة في طنجة عن اصلها فردها قوم الى اصل عربي من الاخاء اوالمواخاة ، وردها آخرون الى اصل بربري وقال لنا بعض المصريين الذين شهدوا معنا مهرجان القرويين في الرباط : في لغة قدماء المصريين كلمة تشبه هذه الكلمة هذا واذا اراد المغربي ان يقول لك (كفاية) قال (بركة) واذا اراد ان يقول لك (جميل) او (حسن) قال (صافي) الى غير ذلك . ولنا ان نقول حبذا هذا الصفاء وحبذا تلك البركة في منطق القوم .

ومن ذلك قلب الجيم ياءً في جملة من الألفاظ ، فيقولون : (مَسيد) في (مسجد) والجمع (مسايد) ومن الغريب انها رسمت في بعض الكتب المغربية الحديثة (مدارس المسايد) يعنون مدارس المساجد ، وهذا النوع من القلب شائع كما لا يخفى في عامية اقاليم العراق الجنوبية كالمنتفك والبصرة والعمارة خصوصاً بين طبقة الزراع والفلاحين . ولا تخلو بعض اقاليم اليمن من هذه اللهجة ايضاً ، وفي هذا الصدد نقول ان التعريف بـ (ام) دون اداة التعريف الشائعة عند العرب وهي (ال) لا يزال معروفاً في اليمن على قاعدة (ليس من امبرم صيام في امسفر) فتقول بعض قبائل الجنوب في شبه الجزيرة العربية في الناصر (امناصر) .

اختزال الالفاظ :

يكثر الاختزال في منطق العامة من المغاربة فيقولون في عبدالرحمن (رحوم) وفي عبد القادر (قدور) وفي زكريا (زكور) وفي عبدالعزيز (عزوز) وفي عائشة (عشوش) وهذا الضرب من الاختزال معروف في لهجة اهل بغداد والموصل ، وتختزل الالفاظ في منطق الاقوام القاطنة في شمال العراق ، من ذلك مثلا قولهم في كلمة محمود (حموّ) كما هو الشأن عند المغاربة ، ويلاحظ ان هناك كلمات اتفقت اللهجات العربية على اختزالها او تصغيرها منها كلمة (خدوج) في خديجة وهي شائعة عندنا في العراق ، ولها امثال ، وكان اختزال هذه الكلمة معروفاً في لهجة عرب الاندلس فهذا العماد الاصبهاني ترجم في قسم شعراء مصر والمغرب وصقلية والاندلس من كتابه المعروف بالخريدة لشاعرة اندلسية اسمها «خدّوج» قال العماد : (والاصل فيها خديجة) وهو من لطائف الاتفاق في اللهجات العربية .

قدم العامية :

لا ريب في فائدة دراسة اللهجات العامية المنحرفة عن الفصحى في سائر البلاد العربية

ومنها المغرب ، وذلك لمعرفة اسرار تولدها وانشقاقها عن امها الاصلية ، ولا يخفى ان العامية المغربية قديمة قدم عامية الاندلس وكل عامية اخرى فلأئمة النحو واللغة مثلا ، ولأهل اللسن والفصاحة من شعراء ومترسلين لهجتان : لهجة خاصة بالتأليف والكتابة ، ولهجة عامية شائعة في المحادثات اليومية داخل البيوت وفي الاسواق ، قال ابن سعيد [1] : (كلام اهل الاندلس الشائع في الخواص والعوام — يعنى لهجتهم العامية — كثير الانحراف عما تقتضيه اوضاع العربية حتى لو ان شخصاً من العرب سمع كلام «الشلوبين» وهو يعلّم النحو في عصرنا ، وهو الذي شرقت تصانيفه وغربت وهو يقرىء درسه لضحك بملء فيه من شدّة التحريف) .

هذا ما قاله ابن سعيد عن قدم اللهجة العامية في منطق علماء الاندلس والتخاطب بها لا بالفصحى في المنازل والاسواق . وهو فيما نرى مما يجري وفق طبيعة الاشياء ، فالتخاطب بغير الفصحى في البيوت والاسواق حتى بين أئمة العربية كان وما زال معروفاً في غير الاندلس من الاقطار ومن ذلك مصر والشام والعراق ، وما اكثر الشواهد على ذلك في كتب الادب والتاريخ وحسبنا هذا دليلا على قدم اللهجات العامية .

البربر واللغة البربرية :

يعتبر جيل البربر قسيم العرب والمستعربين في المغرب ، وللقوم لغة خاصة تعرف بالبربرية ، ونحن نفضل اطلاق كلمة (اللغة المرابطية) مكان (اللغة البربرية) عليها كما ورد ذلك في غير كتاب من كتب التاريخ [2] وقد جاء في تلك الكتب التي عنيت بسيرة يوسف بن تاشفين ملك المرابطين انه كان يجهل العربية قالوا : ولكنه كان ذكي الطبع يجيد فهم المقاصد ، وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية ويترجم له من لغة الى

---

(١) النفح (١/٣:١٠٣) .

(٢) الوفيات (٢/٣٦٥ ـ ٣٦٦) وانظر نفح الطيب (٢/٥٢٤) .

اخرى ، ولما وصلت رسائل الاستغاثة من ملوك الطوائف بالأندلس الى ابن تاشفين ، وكانت مكتوبة بالعربية لم يفهم ما ورد فيها الا بعد الترجمة ، هذا ولا نعرف من سمى البربرية «اللغة المرابطية» ولكنها تسمية طريفة واصطلاح لابأس به . وعلى كل حال فالبربرية او (الشلحة) ـ كماتسمى في المغرب ـ لغة خطاب ليس لها حروف، ولذلك لايكتبون بها ، وكانت شائعة في جميع اقطار المغرب قديماً ولكنها غير معروفة اليوم في برقة وطرابلس وتونس وما اليها اللهم الا في جهات نائية فانها لم تزل لغة خطاب في لهجـات قبائل المغرب الاقصى التي تقطن الارياف والجبال والصحراوات . و « الشلحة» ، من لهجات البربر منسوبة فيما نرى الى « الشلوح » قال ابن منظور (الشلوح طوائف من البربر يتكلمون بالسـنة مختلفة مساكنهم بأقصى بوادي المغرب) ، هذا وفي مادة (بربر) من كتاب (التاج) لابن منظور فصل عني فيه بايراد مختلف الآراء عن أصل البربر في بلاد المغرب والمشرق ذكر فيه طرفا من احوالهم وعاداتهم وما الى ذلك . واشار ابن منظور في هذا الفصل الى قول ابن خلدون في كثرة عددهم ، ونقل قول السهيلي في « الروض » انهم من نسل حام ، وفي هـــذا الفصل الذي عقده ابن خلدون كلمة عرف بها البربر وسمى بلادهم وقبائلهم ومساكنهم وعاداتهم في معاشهم ووصفهم بشدة الباس وقوة المراس وقرنهم بامم العالم المشهورة ، وذهب بعض الباحثين الى وجود التشابه في جملة من العادات والشيم بين العرب والبربر وعدّ من ذلك مثلاً اكرام الضيف والغيرة على الاعراض والانفة وحماية الذمار والبساطة في العيش ، ومن أجل ذلك عاش العرب والبربر جنباً الى جنب في العصور القديمة والحديثة. والخلاصة وجـــد البربر في شمال افريقية منذ عهد سحيق، ذكرهم البلدانيون واهل السير والتواريخ ، هذا ومن الامم القديمة التي انشأت لها مستعمرات في شمال افريقية الفينيقيون والقرطاجنيون واليونان إلا ان ذلك لم يترك الا اثراً ضئيلا في السكان الاصليين ، ويعللون عجز قبائل البربر قديماً اوقبل الاسلام عن

انشاء دول قوية وطيدة الاركان ببداوتهم وبانقسامهم وانشقاقهم الى قبائل متناحرة، ومع ذلك يلاحظ ان قبائلهم التي تقيم في الجبال الشاهقة او في البوادي البعيـدة لم تتأثر بغيرها من الاجناس الا قليلا ، ولهذا فان نزعتهم الى الاستقلال لم تمت بالمرة ، وكانوا يكنـّون عداوة عظيمة للرومان ، وهذه العداوة ادّت الى غزو افريقية الشمالية من قبل فرنجة الديار الاندلسـية ، وعنى بعض البـاحثين من المستشرقين الغربيين بالبحث عن سكان المغرب باقسامه الثلاثة الا ان بحوثهم مشوبة باغراض سياسية واطماع اشعبية، ولاحظنا فيها مغامز غير قليلة بل مطاعن بجيل البربر ووصمهم بالجهل والهمجية والوثنية، وحاول هؤلاء الكتاب جهدهم التفرقة بين عناصر المغرب بحجة اختلافهم في اللغة والجنس والعادات الى غير ذلك ، ومن رأينا ان تشويه تاريخ المغاربة من بربر وعرب وغيرهم بمثل هذه البحوث المسمومة لايلحق ضرراً بالاجيال الاسلامية المذكورة ، ومما يشرف البربر فيما نرى مطاعن من يطعن بهم من كتاب الافرنج والمستشرقين المغرضين ، وفي هذه المطاعن دلالة على فشل محاولات المستعمرين في استعبادهم قديماً وحديثاً، وقد اتحد العرب والبربر اتحاداً لا تنفصم عراه في عصر المرابطين والموحدين والمرينيين ومن تلاهم من دول المغرب باقسامه الثلاثة قديماً والى هذا اليوم .

التعليم في المغرب :

اصبح التعليم الرسمي في المغرب منذ فرضت الحماية على البلاد سنة ١٩١٢ الى عهد غير بعيد يجري باللغة الفرنسية، والمدارس في هذا النوع من التعليم اقسام اهمها المدارس الاوربية والمدارس الاسلامية ومناهج هذه المدارس باجمعها هي المناهج المقررة في فرنسا بالذات ، تُعلمّ جميع المواد فيها باللغة الفرنسية ، ولا تختلف المدارس الخاصة بالمغاربة المسلمين عن غيرها فان لغة التعليم فيها هي الفرنسية ، وثلاثة ارباع معلميها فرنسيون .

اللغة العربية :

كانت اللغة العربية تدرس في بعض مدارس المغرب على انهـــا مادة اضافية ، بل كانوا يدرسون قواعد العربية وموادها بالفرنسية ، وقد حذا الاتراك بعـد ذلك في بلادنا حذو القوم فكانوا يدرسون العربية باللغة التركية ، وهناك مدارس لا تدرس فيها العربية قط . هذا ما كانت عليه مدارس المنطقة السلطانية في المغرب فهي من مدارس فرنسا نفسها ولا تختلف عنها من جميع الوجوه على ان اكثر من ٩٠ بالمائة من المغاربة المسلمين محرومون من التعليم في حين ان مثل هذا العدد من الفرنسيين والاوربيين مقبولون في مدارس الحكومة المغربية الى ذلك الحين ، والخلاصة ما ابعد الفروق بين الفرص المتاحة لابناء المغاربة والمتاحة للفرنسيين في التعليم علاوة على ان مدارس المسلمين قاصرة على الصفوف الاولية او الابتدائية بحيث لا تستطيع كثرتهم المضي في مراحل الدراسة الثـانوية والعالية ، يضاف الى ذلك ان الطالب الفرنسي يتلقى التعليم بلغته ، اما الطالب المغربي فانه يجبر على ان يتعلم بلغة اجنبية اما المعلمون من المغاربة ومن يعاونهم من المشـارقة فهم اقل من ثلث المجموع . هذا في المدارس الرسمية ، والحالة انكى وامرّ في مدارس الاوربيين فقد ناهز عدد المدرســين الفرنسيين في هذه المدارس (٢٥٠٠) ويلاحظ مثل هذا التفاوت الجسيم في المبالغ المخصصة لنفقة المدارس الفرنسية والاوربيـة والمبالغ المخصصة لنفقـة المدارس الاسلامية .

التعليم الاهلي :

كان التعليم الأهلي المعروف في الكتاتيب شـائعاً في جميع جهات المغرب وقد ارتفع عدد الطلاب في هـــذه الكتاتيب الى مئات الالوف ولـكن سلطان الحماية حظر ادخال اي نوع من الاصلاح على برامج هذا التعليم البسيط ، ولا حاجة الى القول بان هذه السياسة الغاشمـة ادت من جانب المغاربة الى سـخط بالغ ، وكان السخط يتفـاقم من حين الى آخر ، واشتدت المطالبة بالاصلاح على شكل لم يسع السلطات المغربية والفرنسية الا تـكوين

لجنة تعنى بدرس مطالب المغاربة وتقديم مقترحاتها في هذا الشان . وكان ذلك سنة (١٣٧٣هـ ١٩٤٦) وقد تلقت السلطات الحكومية مذكرة اللجنة متضمنة مقترحاتها ولكن لم يظهر لها أثر في مرحلة التطبيق ، وعلى كل حال جاءت هذه المذكرة تعبيراً عن تذمر المغاربة من انحطاط مستوى التعليم في كافة مراحله، وانعدام العناية باصلاحه ومناواة اللغة العربية والدراسات الاسلامية .

مطالب اساتذة القرويين :

وفي السنة المذكورة نشط اساتذة القرويين وطلابها منادين بصيانة كيان معهدهم ، ومنع كل تدخل اجنبي في شؤونه وطالبوا ايضاً باصلاح نظم المعاهد على اساس مسايرة الروح العصرية .

التعليم في مرحلة الاستقلال :

ولا يخلو ضرب من المقارنة بين ماضي التعليم على ما كان عليه في عهد الحماية ، وما صار اليه بعد الاستقلال من فائدة، ومن الواضح انه لم تمض فترة كافية بعد للتخلص بالمرة من مساويء عهد الحماية في ناحية التعليم وغيره ، اذ انتقل للدولة المغربية الفتية ميراث ثقيل من ذلك العهد الذميم ، ويتراءى لنا ان السلطات المغربية تبذل اليوم جهداً لا بأس به في سبيل الاصلاح ، يظهر لنا ذلك من فحوى مذكرات المصالح الرسمية ووزارة التربية الوطنية ، وآخر مذكرة اطلعنا عليها في هذا المعنى تعنى بشرح خطة الحكومة في اصلاح التعليم ، وتعريبه في مراحله الثلاث . ومن رأي الجهات المسؤولة حسبما يظهر من هذه المذكرة ان فكرة التوحيد توحيد مناهج الدراسة اذا تم تطبيقها ستؤدي الى خلق روح من التفاهم والانسجام بين مختلف طبقات الامة ، وذلك بدراسة عميقة للغة القومية ـ على حد عبارة المذكرة ـ واشارت هذه

المذكرة بعد ذلك الى حدود التوحيد والتعريب ، وانها ستتناول التعليم بمراحله الثلاث وستبقى الفرنسية مع ذلك لغة تعلم بها العلوم العامة بالاضافة الى انها لغة التعليم الثانوي في كثير من المواد ، ويقضي المنهج الجديد باستقلال « جامعة الرباط » استقلالاً تاماً عن الجامعات الفرنسية على ان يلحق بهذه الجامعة كلية للشريعة ومعهد للعلوم الاجتماعية وآخر للعلوم السياسية .

شؤون الطلبة :

كان نصيب الطلبة المسلمين من المغاربة من عناية السلطات الحكومية ضئيلاً جداً على عهد الحماية ويبدو لنا من التأمل في هذه المذكرة التي صدرت منذ عهد قريب ان السلطة تسير الآن على خطة جديدة من حيث العناية بشؤون الطلاب والنظر في حاجاتهم مادياً ومعنوياً سواء اكانوا من المغاربة ام الافارقة ، ولم تفتها العناية بشؤون الذين يدرسون خارج البلاد شرقاً وغرباً ، ومن قبيل هذه العناية تعيين مراقب للطلبة الذين يدرسون في الشرق على ان يقيم في القاهرة وآخر لمن يدرسون في الغرب على ان يقيم في باريس ، وتؤكد المذكرة على وجوب اعارة النواحي المادية ما تستحقه من الاهتمام كزيادة مبالغ المنح وانشاء المطاعم المدرسية في بعض معاهد التعليم ، ومن ذلك يستفاد مبلغ الحيف الذي لحق المغاربة من جراء ضآلة المنح الحكومية في عصر الحماية ، ومن جراء سوء التغذية :

التدرج في تعريب التعليم :

ومن الاهداف المهمة التي اكدت عليها المذكرة (تعريب التعليم) ولا شك ان السلطات المغربية تعاني مصاعب غير قليلة في ناحية التعريب ومن اجل ذلك كانت خطتها تدريجية في هذا الباب ، وقد تم بموجب هذه الخطة تعريب قسم من التعليم الابتدائي ،

وتشير المذكرة ايضا الى زيادة الحصص المخصصة لدراسة العربية عما كانت عليه ، والى وضع برامج لاعـــداد المعلمين ، ونلاحظ في هذا الصدد ان بعثات المغرب من الطلبة ترسل الى الجامعات الفرنسية ، ويا حبذا لو وزعت هذه البعثات ولم تقتصر على تلك الجامعات .

التعليم العالي : جامعة الرباط

تشير المذكرة في هذا الصدد بشيء من الاغتبـاط الى تاسيس جامعة مغربية محضة في الرباط مستقلة عن الجامعات الفرنسية يشرف على ادارتها مجلس خاص ، وقد زرنا مركز هذه الجامعة ومجلس ادارتها في المدينة اكثر من مرة ، وتجولنا في مبانيها وهي ضخمة حقاً ويبدو لنا انها من منشئات العهد الماضي في المغرب وفيها قاعات وابهاء حسنة لالقاء المحاضرات والبحوث . وتنوه المذكرة بان الاقبال على هـــذه الجامعة كان عظيماً وتشتمل على كلية للحقوق واخرى للشريعة وكلية للآداب والعلوم ومدرسة للطب ، ومدة الدراسة في هذه الكليات ثلاث سنوات ، ولا يزيد عدد طلابها على ثلاثة آلاف ، هذا ملخص ما جاء في المذكرة عن الجامعة الجديدة ، ولا شك ان تأسيس جامعــة مغربية مستقلة عن الجامعات الفرنسية عمل كبير ، ولاجل ان تكون هذه الجامعة مستقلة بكل ما لهذه الكلمة من معنى يجب اتخاذ كل الوسائل الممكنة لجعل العربية لغة التدريس في جميع الاقسام .

فكرة التوحيد :

وفيما يتعلق بتوحيد التعليم في المغرب وردت في المذكرة عبارة صريحة لا لبس فيها ولا غموض اذ جاء فيها ما نصه : (ففي الميدان التربوي نذهب الى توحيد التعليم توحيداً يكفل تكوين المواطن تكويناً صالحاً متشبعاً بمقوماته الروحيـة قادراً على الانتاج) وتعزز المذكرة هذه الدعوة الى توحيد التعليم بما تسميه (مسايرة التطور وواقع الحياة)

ونقول ان اخطر نقص يصاب به نظام تعليمي هو عدم مسايرته للواقع الذي يترتب عليه انفصال تام عن معترك الحياة .

تأخر المدارس القديمة :

تعرج المذكرة اخيراً على الاشـــارة الى انحطاط المدارس القـديمة بسبب جمودها واقتصارها على التلقين والترديد ، وفي سبيل تدارك هذه الاخطار تقول « يتحتم بذل جميع مجهودنا من اجل توجيه التعليم نحو الواقع » وانها لمفخرة للمدرسة المغربية ـ كما ورد في المذكرة ـ اذا تمكنت من اداء هذه الرسالة ، هذه هي خلاصة مذكرة وزارة التربية الوطنية فيما يتعلق باصلاح التعليم وتنسيقه وتعريبه في عهد الاستقلال ، هذا وكان بودنا ان نرى فيها اشارة الى ذلك الاتجاه الجميل الذي ورد في خطاب عاهل المغرب بشأن الاصلاح على اساس احترام اهداف القرويين الأصيلة .

الخط المغربي : بحث مقارن

توحيد القاعدة ، آراء في صور الكتابة ، القاعدة المشرقية ، القاعدة المغربية : اقتراح على المغاربة بشأن الخط

يعتز المغاربة كثيراً بالقاعدة المتبعة عندهم في الخط ، وبهذه القاعدة فيما لاحظنا يكتبون ما يكتبونه على واجهات الدواوين او المدارس ، وعلى مداخل المـــدن والقرى وغير ذلك ولا شك ان حروف الكتابة المغربية هي الحروف العربية الا انها تكتب بشكل يختلف عن شكلها في الكتابة المشرقية حتى ان قراءتها لا تخلو من صعوبة على المشارقة ، وتاريخ هـذا الخط المغربي ومثله صنوه الاندلسي قديم دوّن به تراث المغاربة كما نجده في المخطوطات والى هذه الالفة القديمة في الخط مرد التزام المغاربة بقاعدتهم في الكتابة ، وما يقال في الخط المغربي يقال في الخط الاندلسي فهو صنو المغربي بل هو هو في اكثر الاحيان ، ولما كان الخط اداة خطيرة يعتمد عليها في التعليم والتأليف ذاكرنا اصدقاءً لنا من علماء الرباط وادباء فاس ، وسألناهم عن رأيهم في توحيد الكتابة العربية على اساس اقتباس صورة الخط المعروفة في

المشرق خصوصاً في كتابة المصاحف الشريفة فرأينا من بعضهم اعجاباً بخطهم وتفضيلا له بشكله الحالي على خطوطنا المشرقية ، واصراراً على الاحتفاظ بتراثهم من هذا القبيل، وبالغ بعضهم قائلا حبذا لو اقتبس اهل المشرق طريقتنا في الكتابة ، وادعى بعض هؤلاء الاصدقاء ان الخط المغربي اجمل ، وللناس فيما يعشقون مذاهب ، ولما سألناهم لماذا تطبعون مصاحفكم بحروف مشرقية لم نجد جواباً شافياً عن ذلك .

منذ التاريخ الذي عرفت فيه القاعدة الاندلسية او المغربية في الخط تعددت الآراء في المفاضلة بينها وبين القاعدة المشرقية ، ومن رأينا ان كثرة المتادبين او المثقفين المعنيين بهذه الشؤون ولا يستثنى المغاربة منهم يفضلون قاعدة المشارقة ، وفي التاريخ شواهد غير قليلة على ذلك ، منها مثلا ان محمد بن عبد الله البلنسي المعروف بابن الأبار بعد هجرته من الاندلس الى تونس في عصر الدولة الحفصية كان لا يشق له غبار في كتابة الخطوط المشرقية التي كان السلطان يفضلها على الخط المغربي ، وهذا السلطان هو الذي ناط بابن الابار رسم طغرائه في الرسائل والوثائق السلطانية تحت البسملة ، ويستفاد من ذلك ان الخط المشرقي له انصاره الراغبون فيه من قدماء المغاربة ، والحق ان اهل القيروان وافريقية لم يعرفوا اول الأمر الا قاعدة المشرق ، وبها كتبوا في عصر زهو القيروان وحضارتها ، فان القيروان كانت دار علم وعرفان قبل المغرب ، وعرف الخط القيرواني بالافريقي بعد ذلك ، وهو الخط الذي كان مألوفاً في بغداد والشام ومصر أو قريباً منه جداً ، ومن القيروان انتقل الخط المشرقي او الافريقي المذكور الى المغرب ، ولكن القيروان دمِّرت في منتصف المائة الخامسة وذهبت حضارتها الباذخة فانحط الخط فيها وتغير ، وعلى توالي العصور اصبح كل واحد من الخطين مستقلا عن الآخر حتى ان من اعتاد الكتابة بالخط المغربي لا يستطيع الكتابة بالخط المشرقي الا نادراً ، ويعتبر الحذق في الخطين معاً فضيلة كبيرة ، حتى قال ابن خلدون عن صاحبه المحدث ابن

مرزوق [1] (برع في الطلب والرواية وكان يجيد الخطين) . والخلاصة لم نستطع اقناع من تحدثنا اليهم من اخواننا المغاربة بوجهة نظرنا في موضوع توحيد شكل الكتابة ، على اساس اقتباس القاعدة المشرقية غير اننا نعتقد ان انصار القاعدة المشرقية يزدادون عدداً من يوم الى آخر في تلك البلاد ، ولا حاجة الى القول باننا لا نتحيز الى خط معين ولكنها مصلحة الامة تقضي بتوحيد القاعدة في الكتابة كما تقضي بتوحيد المنهج في الثقافة .

بحث ممتع في الموضوع :

عقد ابن خلدون في مقدمته بحثاً ممتعاً الم فيه بتاريخ الكتابة المغربية . واشار الى اولية الكتابة في القيروان والمغرب ، وان خطهم كان « بغدادياً » او مشرقياً ثم لمح الى سبب تغلب الطريقة الاندلسية في الخط على الطريقة الافريقية المشرقية وتشكى شكاة مريرة من رداءة الكتب التي انتسخت بالخط المغربي المذكور ، وفي هذا الفصل بحث مقارن بين قواعد الخطوط المغربية والمشرقية تخلص ابن خلدون منه الى القول برداءة الخط المغربي فقال : « اختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها وكان الخط البغدادي معروفاً برسمه وتبعه الافريقي يعني القيرواني المعروف برسمه القديم لهذا العهد وهويقرب من اوضاع الخط المشرقي ، وتحيز افق الاندلسي بالامويين فتميزوا باحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط ، وتميز خطهم الاندلسي كما هو معروف الرسم بهذا العهد وطما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية في كل قطر ، وعظم الملك ونفقت اسواق العلوم ، وانتسخت الكتب واجيد كتبها وتجليدها، وملئت بها القصور الملوكية بما لا كفاء له ، وتنافس اهل الاقطار بذلك وتناغوا فيه . ثم لما انحل نظام الدولة الاسلامية تناقص ذلك اجمع ، ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل ما بها من الخط والكتابة والعلم الى

(١) رحلة ابن خلدون ط . القاهرة (ص ٥٠) .

مصر والقاهرة فلم تزل اسواقها نافقة بها لهذا العهد، وله - يعني للخط - بها معلمون يرسمون لتعليم الحروف في وضعها واشكالها قوانين متعارفة » هـذا ما قاله ابن خلدون عن قوانين الخط والكتابة المشرقية او البغدادية ثم قال : « واما اهل الاندلس فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب فيها ومن خالفهم من البربر ، فتغلبت عليهم امم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة اللمتونية - يعني دولة المرابطين - الى هـذا العهد وشاركوا اهل العمران في الصنائع ، وتعلقوا باذيال الدولة فغلب خطهم على الخط الافريقي وعفّى عليه ، ونسى خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدها وصنائعها ، وصارت خطوط افريقية كلها على الرسم الاندلسي بتونس وما اليها لتوفر اهل الاندلس بها وعدد الجالية من شرق الاندلس ، وبقى رسم منه - يعني الخط الافريقي المنقول عن الخط البغـدادي ، ببلاد «الجريد» الذين لم يخالطوا كتاب الاندلس، ولا تمرسوا بجوارهم ، وانما كانوا يفدون على دار الملك بتونس ، فصار خط افريقية من احسن خطوط الاندلس حتى اذا تقلص ظل الدولة الموحدية بتونس وتراجع امر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وبقيت فيه اثار الخط الاندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك ، وحصل في دولة بني مرين بعد ذلك بالمغرب الاقصى لون من الخط الاندلسي لقرب جوارهم ، وسقوط من خرج منهم - يعني الاندلسيين - الى فاس قريباً - أي في المائة السابعة والثامنة - ونسي عهد الخط من بعد ذلك في سـدة الملك ، وصار وكأنه لم يعرف وصارت الخطوط بافريقية والمغربين الاوسط والاقصى مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة ، وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة منها تحصل لمتصفحها الا بالعناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتحريف وتغير الاشكال الخطية حتى لا تكاد تقرأ ، ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع لتناقص الحضارة » .

هكذا خلص ابن خلدون من هذا البحث الطريف الى القول برداءة الخط المغربي وانه

خط سقيم ، والى ان الخط المشرقي او القيرواني افضل منه ، فهو من انصار الطريقة المشرقية في الخط التي كانت معروفة في مصر والقيروان وما اليها من البلاد ، أجل خلص ابن خلدون الى هـذا الرأي بعد خبرة طويلة ودراسة عميقة قرأ خلالها ما قرأ من الكتب المرقومة بالخطين على حد سواء ، ولكنه عانى ما عانى من سقم النسخ في الكتب المرقومة بخطوط اهل المغرب ، هذا وما خلص اليه ابن خلدون هو القول الفصل في هذا الباب لا شك في ذلك .

الفهارس

١ ـ فهرس المحتويات

٢ - فهرس الاعلام والأنساب

٣ - فهرس القبائل والفرق والجماعات

٤ ـ فهرس البلدان والامكنة والبقاع

- ن -

- و -

- ى -

٥ - فهرس المآخذ والكتب


Bibliotheca Alexandrina
03600550